﴿ حياة احمد شوقي ﴾

« للاستاذ محمد بك كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي »

حدثني امير الشعراء احمد شوقي بك ان اصل جده لابيه وجد العلامة احمد تيمور باشا من اكراد الجزيرة ، هبطا مصر في سن الصبا يحملان وصاة من احمد باشا الجزار والي عكا الى محمد علي باشا والي مصر فضمهما الى جملته ، واباناا عن ذكاء ومضاء وامانة فنبلا ونسلا . وجد والدة شوقي تركي الجنس اسمه احمد بك النجدهلي (ولعله النيكدهلي) جاء من الاناضول فاستعمله والي مصر ابراهيم باشا في حكومته ، ثم زوجه بمعتوقته تمراز وهي يونانية أسرتها الحملة المصرية من بلاد المورة ، وكانت في العاشرة من عمرها ، ونشأت في القصر العلوي وكان لها بأخرة مكانة بين اهله . وتمراز هي التي كفلت شوقي فأحسنت كفالته ، وكان لها اثر في تخريجه ، ولما مضت لسبيلها في التسعين من عمرها رثاها شوقي وندبها . ويقول شوقي عندما ترجم لنفسه انه عربي تركي يوناني جركسي بجدته لابيه ، اصول اربعة في فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت ابويه من قبل فهو من حيث دمه سامي آري يافثي .

ولد في القاهرة في سنة ١٨٦٨ في بيت عز ونعمة ، ولما ترعرع دفعه ذووه الى الكتاب ولم يتجاوز الرابعة ، ومنه انتقل الى المدرسة الابتدائية فالثانوية ، وتخرج في العلوم العربية باستاذه الشيخ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الادبية ، ثم التحق بمدرسة الحقوق فدرس سنتين ، ودرس فن الترجمة فأحرز شهادتها . وكان في خلال الدراسة ينظم بعض القصائد في مدح الخديوي توفيق باشا فمنحه مشاهرة حتى يتم تحصيله ، وارسلته الحكومة المصرية الى فرنسا يحكم الحقوق ويطلع على ادب الفرنسيس . ولما رجع الى مصر عين رئيساً للقلم الافرنجي في ديوان عباس حلمي باشا الخديوي السابق ، وظل في هذا المنصب حتى نشوب الحرب العامة فارادته السلطة الانكليزية على الخروج من مصر فاختار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

المقام في اسبانيا ، وعاد الى القطر عقبي الهدنة لينصرف الى ادارة املاكه ، وفي سنة ١٩٢٤ عين عضواً في مجلس الشيوخ .

هذا شوقي من حيث المادة ولم يرزق مالم يصل اليه غيره ، فان مئات من الشبان مثله يدخلون المدارس ، ويستمتعون بطيب العيش ، ويعنى اهلهم بتربيتهم ، ويعاشرون ارقى الطبقات ، وتدر عليهم الدنيا اخلاف الرزق ، ويشرفون بالرتب والمناصب والاوسمة ، ولكن لا ينبغون كشوقي ، ولا يعملون عمله ، ولا يخلدون خلوده . ذلك لان الفاطر اودع فيه سراً لم يودعه غيره من ابناء العربية ، وخلقه شاعراً استجمع ادوات الشعر . واستوفى اسباب محاسنه ، وصعبت مساماته في اخيلته البديعة وبيانه الرائع .

لم يخرج شوقي على اساليب العرب وقوالبهم في شعره ، بل رعاها كلها وحرص على احيائها ، وزاد في موضوعات الشعر بابتداع المعاني الجديدة في قصائد مديحه ، وفي تشبيبه بطالع الناس بطريف من القول ، ويلبس الشعر حلة العصر ، وقد نقل لأول امره قصصاً منثورة ماعلت كثيراً عن مستوى القصص المتعارفة باسلوبها وبلاغتها . ثم الف واحتذى حكايات للاطفال فاستجادها الناس واستظهرها فتيان المدارس .

واعتذر عن نظم المديح فقال انه لم يجد امامه لأول نشأته غير دواوين للموتى ، لا مظهر فيها للشعر ، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عالٍ ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الاسمى في البلاد ، فما زال يتمنى هذه المنزلة ويسمو اليها مخلصاً في حب صناعته ، صائناً لها عن الابتذال حتى وفق الى ما أراد . ولذلك أنفق معظم مديحه في الخديوي عباس ، ووفى له وهو صاحب الشأن الاول في مصر ، فكان يوالي من والاه ويعادي من عاداه ، وكذلك كان على الوفاء له بعد ان اعتزل الحكم . وقد نظم قصائد في حسنات محمد علي واسماعيل والسلطان حسين كامل وجلالة الملك فؤاد الاول الى غيرهم من آل محمد علي ممن لم يجد حرجاً في التنويه بهم ، وأشار الى اعتزازه ببيت محمد علي بقوله :

أأخون اسماعيل في ابنائه ... ولقد ولدت بباب اسماعيلا
ولبست نعمته ونعمة بيته ... فلبست جزلاً وارتديت جميلا
ووجدت آبائي على صدق الهوى ... وكفى بآباء الرجال دليلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال في مدحه احد أعيان القبط دفاعاً عن مذهبه في الاشادة بالمناقب :

يظهر المدح رونق الرجل الما جد كالسيف يزدهي بالصقال
رب مدح أذاع في الناس فضلاً وأتاهم بقدوة ومثال
وثناء على فتى عم قوماً قيمة العقد حسن بعض اللآلي
انما يقدر الكرام كريم ويقيم الرجالُ وزنَ الرجالِ

وفي الحق ان أماديح الشاعر انطوت كعامة موضوعاته على حكم وأغراض اجتماعية وأخلاق وتربية ، واشارات تاريخية وفلسفية وأدبية . أما المسائل الوطنية الكبرى التي تستهوي قلوب الناس ، فما كان يخوض عبابها الا بالقدر الذي لايخرجه عن الرسميات ، لأنه كان مضطراً بحكم عمله ان لايحرج مقام مولاه مع المحتلين ، ولا يقول الا ما يروقه من عامة نواحيه . وكان محيطه وهو من عمال البلاط الخديوي مشبعاً بروح الرسميات ، وهو على اتصال دائم بالاجانب من رجال السياسة والمال والأدب والفن ، فحذق بذلك مداخل السياسة ومخارجها وأوامرها ونواهيها . وغريب في شاعر هو أسير خياله والهامه في ليله ونهاره ، ان يخضع مختاراً لهذه القيود والتقاليد ، ولكنه لولا ذل الخدمة أعواماً طويلة ما ذهب الشاعر بهذا العز ، والعز في الشرق ينبعث عن طريق صاحب السلطان ، والناس لا يرون فوق ذلك مظهراً .

ثم ان اتصال مصر بالصلة الرسمية مع السلطنة العثمانية ، وغرام المصريين يومئذ بالعثمانيين والخلافة ، دعا الشاعر الى ان ينظم عدة قصائد في مدح السلطان عبد الحميد الثاني ، كما مدح بعض الأعيان ممن كانت لهم صلة به ، او منزلة في المجتمع أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، وان لم يشاركهم في دعاياتهم وأحزابهم ، بل كانت مشاركته لهم في مصريتهم وقوميتهم فقط . وكان من دواعي التنويه بهم مجاراة الرأي العام . وقد يجيش صدره في موضوع ويردّه عن ورود حوضه مقامه في الدولة ، كما وقع له ان قال من قصيدة يخاطب بها قبط مصر ، يوم هاجوا لمقتل احد رجالهم بطرس غالي باشا ، فقال يخاطبهم وهو مما لم ينشره في حياته :

بني القبط إخوان الدهور رويدكم هبوه «يسوعاً» في البرية ثانيا
حملتم لحكم الله صلب «ابن مريم» وهذا قضاء الله قد غال غاليا

ومنها :

قضاء ومقدار وآجال انفس اذا هي حانت لم تؤخر ثوانيا
نبيد كما بادت قبائل قبلنا ويبقى الأنام اثنين : ميتًا وناعيا

ولقد صان شعره عن الهجر والهجو فعدّ ذلك من مفاخره . وذكر مظالم عون الرفيق امير مكة لان المسلمين ضجوا من ادارته ، وعدد سيئات حكم لورد كرومر بعد ما غادر مصر وذكر حادثة دنشواي ، وما حاول محاربة الظلم مباشرة ، ولا جابه أعداء المجتمع مجابهة ، ولو صحت نيته على الضرب بسهم في هذا الضرب من القريض ، لما عدم كل يوم عن يمينه وشماله ، أمثلة يطيش لها حلم الحليم ، ويضيق بآلامها صدر الحكيم ، هذا وهو المجائل في كل فنون الشعر ، المجلى في معظم حلباته .

وقد كان من أوائل قصائده التي خرج بها عن مألوف الشعراء ملحمته التي ألقاها في المؤتمر الشرقي في جنيف عام ١٨٩٤ وكان مندوباً فيه عن الحكومة المصرية ، اتى فيها على تاريخ وادي النيل منذ عرف الى اليوم ، وضمنها حكماً وعبراً وسياسة ، ومنها قصيدته الكبرى المسماة نهج البردة مدح بها الرسول على طريقة البوصيري وعرض فيها لما صح من معجزاته وآياته بأسلوب عصري خال من الشوائب . ومن قصائده ملحمته في وصف الحرب العثمانية اليونانية . ومن بدائعه سينيته في الاندلس التي عارض فيها سينية البحتري في وصف إيوان كسرى ، ونونيته في معارضة قصيدة ابن زيدون المشهورة الى ولادة ، وموشحته في صقر قريش ، نسج فيها على منوال الموشحات الاندلسية . وكثيراً ما كان يتعمد معارضة الفحول من الشعراء عربيهم وعجميهم . وله عشرات من القصائد في موضوعات اجتماعية دينية وأدبية وغزلية واجتماعية مختلفة مثل الهجرة النبوية ، توت عنخ آمون ، ذكرى كارنارفون ، وفي هذه القصيدة الابداع كله ، مسجد اياصوفيا ، على سفح الاهرام ، الهلال الاحمر ، مشروع ملنر ، ١٣ فبراير ، بيتهوفن ، كلارنس ، أنس الوجود ، طوكيو ، بين الحجاز ومصر ، الكوكب ، استقبال روزفلت ، مصرع كتشنر ، على قبر نابليون ، الاندلس الجديدة ، اوتيلي الروسية ، شكسبير ، مولد ولي العهد ، وغيرها ، ولم يدون به كبريات حوادث مصر والعالم ، ... وعني بعناية خاصة بذكر الحوادث التركية ، ومدح الاتراك ، الخلافة ، الجمهورية ، ومدح مصطفى كمال باشا بثورته

فلما قضى على الخلافة تأثرت نفسه فعاتبه ، وهنأ انقره ان اصبحت عاصمة وكان معجبا بفروق ، ولطالما ردد آيات جمالها . كل اولئك تغنى به وندبه ، بنفس طويل وابداع غير قليل . وتراه على الغالب يرسم الصور الجميلة ، ويترك لغيره ماوراءها ، علماً منه بان الشعر شعر مهما حمل من الحقائق ، ويغتفر للشاعر مالا يغتفر للناقد المؤرخ . ولو تم لشعره ان نقل الى احدى لغات العلم الحديث نقلاً صحيحاً لسقط فيه الغربيون على ابتكارات وغرائب قد تروقهم ، كما راقهم ديوان عمر الخيام لخروجه على المألوف واتيانه بالجديد احياناً .

قال بعض من ترجموا لشوقي انه تحامى الدخول في بعض المسائل الاجتماعية الكبرى من مثل مسألة المرأة ، فلم يرسل عنان فكره في اصلاحها ولم يمعن في نصحها وارشادها ، بل شفق عليها لما رأى بعض أغنياء مصر يتزوجون في سن عالية فتيات الاستانة يطمعونهن بالمال على غير كفاءة بين الزوجين ، ويترك المصري زوجه واولاده . ولعله اراد ان لا ينغص على المرأة عيشها ، وحافظ على عادات لايرى الاقتراب من نزعها ، وابقى هذا الموضوع للزمن يختمر في رأس غيره ، فيواجه وحده صعابه ، وليس من المحتم على كل شاعر ان يعاني كل شأن من شؤون العالم ، على ان جريدة اعماله في الشعر طويلة ، ربما كان يحسن اختصارها ايضاً ، ويضاف الى هذا ان المعروف من خلقه التلطف مع كل احد ، فلا يرى ازعاج غيره ولا نفسه ، بل يكتفي بأن يعظ وينصح ويسلي ويطرب .

لاجرم ان الشعر انقاد باعنته لشوقي . واسلس له قياده اي اسلاس ، وما كان يعجز عن إلباس كل معنى اللباس الذي يحاول ان يكسوه به . وهو نسيج وحده غير مدافع ولا منازع ، وقد سهلت عليه منافذ النظم ، بقدر ماثقف من ادب القدماء ، وجنى من تراكيبهم واحيى من الفاظهم ، وما لقف من علم المحدثين ، وأخذ من معانيهم وأغراضهم .

ومن اهم ماعاناه شوقي بعد عودته من الاندلس ، وقد تحرر من رق عمله ، ونامت فيه النزعة السياسية قليلاً ، تأليف روايات مسرحية صنف بضعاً منها بشعره المرقص واسلوبه الرقيق ، ليكون في العرب بمثابة شكسبير عند البريطانيين . ونظم مقاطيع في الغزل مؤنثه ومذكره ، وجرى تلحينها لخدم بها الموسيقى ، وأدخلت في اسطوانات الحاكي ، فسمعها ووعاها ابن القاصية والدانية . وهذا مما لم يكتب لشاعر عربي قبله . واثبت بقصصه ومقاطيعه وملاحمه ان اللسان العربي بل الشعر العربي لايضيق ذرعاً بكل المعاني والصور القديمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والحديثة ، وانه يصلح لا كبر الملاحم صلاحه للابداع في البيتين والثلاثة ، على شرط ان يكون الشاعر متمكناً من لغته ويتسع له أفق النظر بما تلقفه من المعارف اللازمة ٠ ولقد خدم برواياته المسرحية فن التمثيل ، وبمقاطيعه الملحنة خدم الموسيقى ، وبجمال خياله ، واشراق ديباجته ، وانتقاء الفاظه ، برز على كثير من المشار اليهم بالبنان من القدماء ٠

هو يرتجل الشعر اذا أراد ، ولكنه يؤثر ان يجوّده قبل ان يخرجه للعالم ، ويختار للنظم في العادة الهزيع الثاني من الليل ، وقد رقدت العيون وعم السكوت والسكون ، كأن الزهرة ربة الجمال لا تجلى له فتملي عليه الا في تلك الساعات الهادئة ٠ ويقول فيه صديقه وعشيره خليل مطران بك انه ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية ، وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه انه ينظم الا اذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا ، وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بَصُرَ به وقد رفع يده الى جبينه وأمرّها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة فاذا قوطع في خلال النظم انتقل الى أي حديث ، يباحث فيه حاضر الذهن صافيه ، جميل البادرة كعادته في الحديث ، ثم استأنف ذلك المنظوم ولو بعد ايام طوال ، وعاد اليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهراً ماتم منه ، حافظاً لبقية المعنى الذي يضمره ، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما نسيها شهراً ، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة ٠

وقال انه يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه ان يبذّهم ، لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أومبنى ، فأما المعنى فيجيئه على مرامه ، أو على أبعد من مرامه ، ولا ينضب عنده ، لانه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ، ومعارف جامعة الى أفانين الآداب في لغات الافرنج والعرب : فلسفة حقوق ، حقائق التاريخ ، وغرائب السير التي يحتفظ منها غير يسير ، الى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استقاها من مطالعته صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب ٠ وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحتري ، ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف الرضي ، ومن مسلسلات مهيار ، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهي انه من نظم شوقي ، ذلك شعر العبقرية والتفوق ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن جميل بديهته المطواعة ما شهدته منه ليلة تكريمه في المجمع العلمي العربي ، فقد نظم قصيدة ثم أبطلها لانه ماارتضاها ، ونظم في الحال غيرها بمحضر من أصحابه في دار نخري بك البارودي ، وأجمع العارفون بالشعر انه لم تمدح دمشق بمثل هذا اللسان ، ذلك لان الشاعر مدحها بل رثاها ، متأثراً بغابرها وحاضرها فبكى واستبكى . وقصيدته في الثورة التي خاطب بها دمشق وقصائده في لبنان تذوب كلها عذوبة وسلاسة ، سارت في البلدان على كل لسان . ومن أمعن في شعره المنثور المتداول ، يوقن ان شوقي كان يحب الشام كما يحب مصر ، ويعشق الترك كما يعشق العرب ، ويعطف على المسيحيين كما يعطف على المسلمين ، ويعجب بالمدنية الغربية كما يعجب بالمدنية العربية ، ويحنو على الانسان والانسانية ويدعو باعتدال الى الكمال ، ويردد ابداً ذكرى الاسلام والمسلمين ، وعلى معظم قصائده تتجلى مسحة جميلة من هذا المعنى تستهوي أفئدة الخاصة والعامة .

نشر شوقي خلال هذا العام كتاباً في النثر أسماه « أسواق الذهب » جرى فيه على نمط « أطواق الذهب » للزمخشري و « أطباق الذهب » للاصفهاني وقصد من تقليدهما في كتابيهما باسمها ورسمها ، ان يقول انه عز عليه ان يقطع مع عهد الأسجاع ، وشاء ان يقول وهاكم أكبر شعراء العصر يقوم على احتذاء مثال الاقدمين في منثورهم ، يقصره على الحكم العملية الجميلة لا على الزهد المضعف للنفوس ، وأكثر سجعات هذا السفر مرصعة موزونة ، ومنها ما جاء شعراً مقفى على غير قصد ، ومنها ما جاء مع الطبع وعفو الخاطر وهو قليل ، وأجمل مافي أسواق الذهب هذا الجزء اللطيف من حكمه المرسلة التي أوردها في آخره وفيه زبدة تجاربه وعنوان أدبه البارع .

وهناك ظاهرة غريبة في معاناة شوقي للشعر ، وهو انه بقي يجيده ايام الهرم على نحو ما كان يبدع هذا الابداع النادر في كهولته وصباه . ومن العادة ان ينقطع الشاعر في الشيخوخة عن قول الشعر ، اما نابغة الشعر العربي فكان على مثال بعض المعمرين من شعراء الافرنج أمثال كيتي وهوغو ممن بلغوا سناً عالية وظلوا ينتجون أجمل إنتاج ، وما عاقتهم مراحل الأعوام التي قطعوها عن السبق في مضمار الإجادة ، بل كأن الشيخوخة فتحت أمامهم كل مغلق من أبواب القريض ، فصار نظمه طبيعة ثانية فيهم ، وكلما أسنوا عرفوا كيف يصلون به الى مراتب الإحكام والإطراب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

لاحظت عيون السعادة شوقي منذ صغره الى ان شبّ وشاب، فما اهتم منذ وعى على نفسه بشيء من هموم الدنيا : أضاع والده ثروة جده فعاش شوقي مع هذا موسعاً عليه، تفتح أمامه الطرق الصعبة بذكائه ولطيف حيلته، وقد بسمت له الدنيا فارتاش وأثرى . وقل ان كتب لشاعر عربي في المحدثين والأقدمين مثل غناه ورفاهيته، اللهم الا مايروى عن بعض شعراء الانكليز وكتابهم اليوم وعن طاغور شاعر الهند . وفي القصر الفخم الذي بناه في الجيزة ودعاه كرمة ابن هانيء مثال من هذه النعمة السابغة . نال المنصور لمن استمنحه (البلاغة والغنى اذا اجتمعا لامرىء أبطراه) بيد ان شاعرنا لم تبطره، وعرف كيف ينفقها .

وكان على نعمته صاحب ترتيب في كسبه وعطائه، يحاسب غريمه حساباً مدققاً، وينزل عن مال كثير ينفق على الادباء والشعراء وأرباب البؤس . وقد رأيناه مع شدة حرصه على خدمة الفن حباً بالفن، لم تسمح نفسه ان يتساهل مع مديري الجوقات فأغلى ثمن رواياته المسرحية، وتقاضاهم أكثر ما يكون من أجر، ليعلمهم — كما قال لي بصراحة — احترام الأدب فيؤدوا لأهله بعض قيم قرائحهم، وكانوا من قبل يعيشون بهضم حقوق المؤلفين . ومن شدة كلفه بالبلاط أحب ان يستأثر بهذه الخدمة لا يشاركه فيها أحد، ولذلك حاول ان يحول بين البلاط وبين من أراده أو أراد التقرب منه .

تمتع شوقي بطيب العيش طول عمره، وتهنأ بالنعيم فلم يفلت منه شيئاً، وتذوق مباهج الحياة تذوق شاعر عملي قُدّر له ان يحقق الخيالات، ويجعلها قيد حسه، دانيةمن نظره . وأحسن الانتفاع بشعره، ونهج السبيل للعرب ليعجبوا بما يقول ويتداولوه ويتدارسوه . وأكثر نقّاد الشعر ورجال العلم باللغة والأدب وفي مقدمتهم أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري، مجمعون على انه لم يقم بين أبناء العربية منذ عهد المتنبي والبحتري وأبي تمام، أسلم ديباجة، وأمتن لغة، وأرق عاطفة، وأجمل خيالاً، وأشرف منزعاً، من شاعري مصر في هذا العصر شوقي وحافظ، أجزل الله ثوابهما .

وصف الأمير شكيب أرسلان شعر شوقي الذي كان بشعره خلال خمسين سنة مجداً للشعر والعرب والشرق فقال :

يتمثل العصر الحديث بشعره حقَّ التمثل من جميع جهاته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولرب بيت يستقل بجملة | تغني عن التاريخ في صفحاته
لم يفتتن من عصره بمساوئ | كلاّ ولم يغمطه من حسناته
ما حلّ بالاسلام حيف مصيبة | إلا وكان بها لسان شكاته
كانت قصائده هي الصوت الذي | سرّى عن الاسلام ثقل سباته
بعثت به روح الحياة كأنها | هي صور إسرافيل في زعقاته
قد كان أدرى الناس بالداء الذي | قد حط هذا الشرق عن صهواته
داء هو الاخلاق في اضمحلالها | فلذا ترى الاخلاق رأس وصاته
أشعاره تحيي وتحيي أمة | تجد الحياة الحق في كلماته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net